

الفلاحة الفرعونية

الحراث والبيدر

للكنوز من كمال

وكيل القوسيون الضي

﴿تقسيم الاراضي﴾ يبدأ اتقلاح بعد زوال الفيضان في تقيية حقله من الاعشاب والاحجار المتخلفة حادة من الفيضان النيلى . وكثيراً ما يرسم الفلاح منذ اقدم الاسرة قنماً بهذا العمل الجليل الشاق كقمة لوراعة الارض . والمعروف ان هذه العناية كانت محصورة بادىء ذي بدء في مساحات تكفي سكان القطر فقط . لكن لما زاد تعداد هؤلاء وبلغ السبعة ملايين نسمة ثم زادت ايضاً صادرات القمح المصري الى بلدان البحر الابيض المتوسط تحتم على اهالي القطر الاتضاع بكل بقعة في وادي النيل تحتملاً لهاتين الغايتين الهامتين . وهذا هو سر استعمال الغابات في القطر المصري وقد اخبرنا ميتن (Metzen) من عيد الاسرة الثالثة⁽¹⁾ انه حوّل جميع اراضي والده الى ارض زراعية . والباحث في الآثار يجد ان عملية تطهير الاراضي من الاعشاب وخلافها استمرت حتى عهد الاسرة الثانية عشرة كما يشاهد ذلك في نقوش زاوية المتين التي اوردها لبيوس (دنكابلوج ٢ لوحة ١٠٨ - ١٢٦) . واستعمل الفلاح في هذه العملية البلطة واستعان على ابادتها الاعشاب بالقم وتناهد النباتات المائية مرسومة بوضوح في بعض مقابر طيبة فقبرة (نحت) تمثل نهر النيل والاعشاب نامية على شاطئيه والقلاخ المصري يقتلعها بالفأس . قال هيرودوتس (ج ٢ - ١٤) وديودورس (ج ١ - ٣٦) ان الفلاح بعد ما يستأصل الاعشاب والنباتات البرية من ارضه يعمد الى تسميدها باطلاق الخنازير فيها . لكن هذا القول قوبل بالنقد الشديد من الاثريين خصوصاً اذا لاحظنا ان مصاطب المملكة القديمة لم تحور رسوماً لهذه العملية للآن . لكن يوجد في مقبرة بطيبة (نب امون Rec. de trav. tix pl. 98) منظر تقطيع من الخنازير يسبق فلاحاً يقلب الارض بنأسه ﴿طريقة استعمال الفأس﴾ سبق ان ألمنا في مقال آخر الى طريقة استعمال الفأس في العهد السابق لعهد القراعنة واوردنا رسماً لذلك . ثم تكلمنا في التحسينات التي اذخلت على هذه الآلة العظيمة التي تعتبر بحق رمز مصر والتي حافظت على وجودها مدى التاريخ . واكثر استعمال هذه الآلة كان في الاحوال التي تتطلب تسليق الارض بدقة دائمة . لذلك كثيراً ما نجد رسوم الفلاحين على الآثار تتناهم قابضين على الفؤوس الواحد نلو الآخر قائمين بعملية الحفر المطلوبة . وذلك

(1) Meyer II. transl. Moret p. 216.

في عهدي المملكة القديمة والامبراطورية . وكثيراً ما يكتب اعلام عبارة معناها « انزل يد » — اي احفر بالقأس (مقبرة في إسقارة) وقد اورد مارييت في كتابه عن المناط (ص ٣٤٦) رسماً لامرأة تحفر الارض بنشاط وشجاعة

وفي مقبرة (بي) المذكورة حفر الحفار منظرًا لثلاثة رجال يستعملون انثاس في حفر الارض بهمة وفوقهم نقشت الشودة كانوا ينشدونها وقت قيامهم بهذا العمل الشاق اليك ترجمتها : « الحفار في المياه وسط الامحاك يناجي محك المنيور ويتبادل التحية مع محك العبيدي — ايها الغرب ان حنارك هو حنار الغرب ^(١) » . والتخاتل الصغير الذي عثر عليه جهة مير يفسر هذه الانشودة اوضح تمثيل . لانه يمثل الفلاح يحفر الارض بفأس باخلاص بين كما يستدل من غور قدمه في الطين حتى كعبه ولما كان وقت الحفر بالنيوروس هو في اليوم التالي زوال الفيضان كان السك حينذاك يندو ويروح حول القائمين بهذه العملية على ما يدل نص الانشودة

« استعمال المحراث » يشاهد استعمال المحراث في فلاحة الاراضي بنسبة تفوق كثيراً استعمال انثاس وذلك منذ عهد الاسر الاولى ، ومنه يستدل على ان الاياضي كانت تزرع بانتظام منذ تلك العصور . وصغار الفلاحين الذين كانوا لا يمتلكون بهائم لمجرا الحارث كانوا يقومون بذاتهم بهذه العملية (مقبرة ياحري) والعادة ان المحراث كانت يجر بثورين او بقرتين وذلك بواسطة ناف متعرض مثبت في قواعد القرون بوثاق فري . لكن هناك مقبرة بمنف تمثل الناف مثبتاً في اعناق اثيران ^(٢) . وهناك عدة قرطيس بادية تحوي رسوماً تمثل تثبيت الناف في الاثاق . واورد برين Prissas ^(٣) رسماً لمحراث يجره جوادان . وهناك مقبرة ببني حسن (لبيوس وديسكار ٢ - ١٢٧) تحوي تمثلاً يستدل منها على ان ثيران صاحب المقبرة كانت مدربة احسن لتدريب حتى انها كانت تقوم بعملية الحرث بمجرد ربطها في المحراث واعطائها الاشارة للبدء بالعمل . والعادة ان هذه البهائم كانت لا تحتاج الى ارشاد وقت الحرث الا ساعة ادارة الآلة وتغيير خطة السير . وبديهي ان محارث هؤلاء القوم كانت لا تنق الأ طبقة المسطحة للحقول كما يستدل من طبيعة محارث تلك الأزمنة وكما هو وارد ايضاً في رواية ديوسقوريدس (جزء ١ - ٣٦)

والباحث في صور المحراث الواردة على الآثار يجهد ان هذه العملية تمثل برسم محراثين او ثلاثة محارث الواحد خلف الآخر . والقصد من رسمها بهذه الصورة هو ايضاح طريقة استعمال عدة محارث على حذاء واحد وفي بقعة واحدة . لكن رسم تلك الصور عسر عليه رسمها رسماً مجسماً فاضطر ان يوضح مراده برسم المحارث بعضها تلو بعض . وهناك احتمال آخر في تفسير تعدد المحارث في مناظر حرث الاراضي يتلخص في ان الارض التي كانت تزرع ككتانا او فولاً كانت تحرث مرتين او

(1) Maspero Etude égyptienne t. II p. 74 trad. (2) Descrip. de l'Égypte. Ant. V. p. 17

(3) Mon. Egypt. pl. 36

ثلاثاً قبل زرعها قحاً. وهذه العادة اتبعها اليونانيون في فلاحهم^(١). فهل كان الحراث يقصد بشدود رسم الحراث اثبات حرث الارض؟ هذا السؤال تصعب الاجابة عنه اجابة قاطنة ويلاحظ في بعض المقابر مثل مقبرة (مخيت) بالانصر ان الرسام اوضح طريقة مجزئة الاراضي الى حقول متعددة بالطريقة التي كانت متبعة في عهده. فهناك ترى حقلين تصعلهما شجرة صغيرة كما تشاهد ايضاً الحراث الذي يستعمل في حرثة احد الحقلين مقابل الحراث فان حرثة الحقل الجاور والبقرتان الجارتان لكل محراث تتقابلان مع بقري الحراث الآخر عند الحد القاصل للحقلين. ويضطر الفريقان بحكم تقابلهما من تولية ظهورها لبعضهما البعض والرجوع بالتالي الى الجهة المضادة والمحراث المصري القديم (وهو لا يزال مستعملاً الى الآن) يتطلب عناية كبيرة من التصلاح فعمل هذا الاخير قبل استعمال الحراث ان يضغط عليه بكل قواه ليرسل حده في التربة الى ابعد مدى ممكن وان يستمر في ضغطه هذا طول مدة الحرث متكثراً على زاوية الحراث بيديه حايماً ظهره طول الوقت. وقد يقوم فلاح واحد بهذه العملية. لكن الغالب ان فلاحين يقومان بهذا العمل احدهما يضغط على الحراث وآخر يسوق البقرة من الامام او الجنب بحسب ما تقتضي الاحوال (مقبرة في) وثمة في مقبرة (بحري) انشودة كان الفلاحون يشدونها وقت الحرث ترجمتها: « انه ليوم بديع ا ويوم سعيد. فالثيران تجر الحارث. والجوابي على مرامها، ونحن نؤدي واجبتنا نحو سيدنا ا » وبعد الفراغ من الحرث يبدأ التصلاح في تكسير الكتل الطينية الناجمة من الحراث. فيعمد بالفاس او المعصى النليظة او القادوم فيفتت هذه الكتل الى قطع صغيرة مهاداً بذلك الحقل لعملية البذر ومستهدلاً في الوقت نفسه طريقة الري

﴿ السجاد ﴾ معلوم ان مياه الفيضان تحمل مقداراً كبيراً من الغرين الذي هو عماد طبيعي. قال بلينيوس (١٩ - ٥) ان قدماء المصريين كانوا يوزعون على اراضي حقولهم مادة آزوتية بقصد التسميد للنباتات المتأخرة النضوج. وروى الاستاذ ولكنسون في كتابه عن عادات المصريين (جزء ٢ - ٣٩٥) انهم كانوا يضيفون الرمال لتلطيف تربة بعض الحقول وجعلها صالحة لثمر بعض النباتات كالعنب ﴿ طريقة البذر ﴾ وبعد الفراغ من عملية الحرث يبدأ التصلاح في بذر حبوبه ثم تغطيتها بالتراب قال هيردوتوس (جزء ٢ - ١٤) ان الاراضي التي كانت تفرها المياه معظم السنة كانت تبذر فيها الحبوب حال زوال الفيضان منها بدون حرث على الاطلاق بشرط ان تكون هذه الاراضي قد سبق زرعها. وليس هذا مستبعد لان خمس مصر المحرقة وخصوصاً في صعيدها تجفف الارض بعد زوال الفيضان عنها في مدة لا تتجاوز عدة ساعات

أما الاراضي التي تحرث حرثاً اصولياً بقصد زراعتها قحاً مثلاً فان التصلاح كان يتبع ساعتئذٍ تصلاح الحراث واضماً الحبوب في مجراه كما هو واضح في قصة الاخرون من أن « الارض حالماً تخلصت من مياه

(1) Iliade XVIII, 547.

التبعا ان اخذ الاخ الأكبر قيادة المحراث وكلف اخاه الاصغر الاسراع في الحضور الى الحقل معسجراً بالحبوب ليدرها». وتشير هذه القصة أيضاً الى طريقة توزيع اعمال الفلاحة بين افراد العائلة والى الاقتصاد في الحبوب وقت البذر حيث ورد فيها ان الكمية الاولى من الحبوب نفلت فأرسل الاخ الأكبر أخاه الاصغر مرة ثانية الى مخزن الحبوب حيث وجد زوجة أخيه فناداها قائلاً «عيا اسرمي واعطيني الحبوب لأن أخي طلب مني الاسراع في ذلك وقال لي لا تكن كسولاً» فاعتذرت اليه السيدة وقالت «يتعذر علي القيام الآن لأنني امرح شعري واخشى ان يتلبك قبل الفراغ منه . فاذهب انت وخذ البذور المطلوبة». فدخل الصبي الاهراء وملاً زلمة كبيرة من الحبوب لأنه كان في بيته ذلك . وكانت الحبوب قحاً وشعيراً . وحملها على كتفه . فلما هم بالخروج بادرت زوجة أخيه سائلة - ما هي كمية الحبوب التي تحملها على كتفك ؟ - فأجابها - ثلاثة مكابيل من الشعير ومكيبان من التمع فيكون الكل خمسة مكابيل . هذا هو ما أحمله على كتفي» - (راجع قرطاس اوربيني لوحة ٢-٩ ، لوحة ٣ مطر ٥) . ومنه يستدل على شدة حرص السيدة في معرفة الكميات المتأخوذة من الشونة محافظة على المقادير اللازمة للمنزل

ودلتنا النقوش البارزة بمقايير سترات القوم وكبار الموظفين ان الحكومة كانت تحافظ جداً على عدم التبذير في الحبوب ومعسولات الاراضي . لأن مرتبات العمال والموظفين كانت تدفع شعيراً او قحاً وجرت العادة على ان الاهالي كانوا يستدينون بعضهم من بعض ما تعادل قيمته مع مقادير معينة من الحبوب لان الحبوب وتشتر أصبح لها قيمة مالية تضارع قيمة النقود في عصرنا هذا^(١) وكانت هناك طائفة كبيرة من الكتابات تقوم بتسجيل الصادر والوارد في شئون الحكومة من الحبوب . واعتاد الرؤساء ان يرسلوا مفتشين مجرد محتويات هذه الشون وذلك لكيل محتوياتها وتسجيلها في سجل خاص تحت اشراف كاتبين . يقوم احدهما بمراذبة عملية الكيل ويقوم الآخر بقيد مقاديرها (راجع مقبرة الشيخ سعيد للاستاذ ديفيز . ص ١٩٠ ومقبرة اورارفا لوحة ١٦) . واورد ليسيوس في (الدينكايلا ج ٢ لوحة ٥٦ مقبرة نوفر بيوبتاج) قروشاً يستدل منها على طريقة اخذ الحبوب من الشون بواسطة الفلاحين القائمين بعملية البذر . ومنها يتضح ان هؤلاء كانوا يعملون اكياسهم حروباً من فتحة الشونة السفلى ومحملوها على اكتافهم تحت اشراف كتبة يقومون بعملية القيد لكل صغيرة وكبيرة . وجاء في عدة قرطاس يردية من العهد الصاوي (٦٦٠ - ٥٢٥ ق . م .) ما يشير الى ان بعض فلاحي ذلك العصر كانوا يقترضون كميات التقاوي اللازمة لهم من تيسريهم حتى ان يردوها من محصول الارض عند الحصاد

وقد حافظ كيس التقاوي على شكله من عهد الاسرة الاولى (٣٤٠٠ - ق . م) (٢) . وكان هذا

(1) Revue egyptologique 1813 3o année, Revillont, Les préts de blé p 25.

(2) Wilkinson, Manners etc. Vol. II p. 369

الكيس يصنع من الصفاف (water-willow) ويحمل مادة فوق الكتف اليسرى ويشف حامله جوار الحرائق أو الحفارين . فاذا ما بدأ الاخرون عملهم تبعم الشخص القائم بعملية البذر قابضاً على الكيس بيده اليسرى ومالكاً قبضته اليمنى جوباً ليذرهما في الشقوق المتخلتة من القروس او الحارث (مقبرة تي لوحة ٣)

وجاء في مرسوم رسم الفلاح يقوم ببذر الجيوب منى بأوراق النبات وحامل لكيس مربع الشكل تقريباً له يد مجدولة مثبتة بمنطقة الكتفين ومرسل الى خلف الابط الايمن . ويعتبر هذا الرسم الوحيد من نوعه على الآثار للآن

وجاء بمقبرة (ياحري) رسم لعملية البذر يتلخص في شخص تابع لحفار او حرثات يبذر الجيوب على طول باعه . ولما كانت العادة عند القوم وقتئذ اذا ارادوا ان ينقشوا عملة البذر على مقارم ان يرسوا الرجل القائم بهذا العمل تانياً ذراعه . لذلك استنتج بعضهم ان الجيوب المقسود بذرهما بمقبرة (ياحري) المذكورة هي غير جوب الصبح وانها لا يبعد ان تكون جوب الكتان (راجع كتاب مقبرة (نحت) لديفيد لوحة ١٨)

واهتم رسامون كثيراً بتلوين مناظر البذر اهتماماً فاق اهتمام الحفارين في تنش هذه العملية (١)
 تغطية الجيوب (٢) ولما كانت احوال القطر الطبيعية تحتم على الفلاحين تغطية جوبهم ببذرهما منعا لتعرض احد جانبيها للارض الرطبة والآخر لاشعة الشمس المحرقة ومحافقة عليها من الطيور والحشرات كما يستدل على ذلك من النص الوارد بقرطاس انطاسي (٥ لوحة ١٥) من « ان الترائثات تأكل اعشاب الحديقة . والحوانات الاخرى تأتي على بقية الزراعة » . وتكمل التغطية في الارض الرطبة بمذبح نخلة يجره ثوران لكن في مقابر المسلكة القديمة (تي لوحة ٣) كانت هذه العملية تؤدي بسوق الغنم او الخنازير التي تفرز الجيوب في الوحل مغطية اياها في الوقت نفسه . وكان الفلاح يشجع احيانا هذه الحيوانات على هذا العمل برغيبها بمحفنة جوب في يده وطورا يرغمها على ذلك بالمص والسياط (في لوحة ٣ - الشيخ سعيد لوحة ٨) . وقد نسب هيرودوتس هذه الطريقة الى اهالي الوجه البحري (٢-٢٦)

اما عملية تغطية التقاوي في الارض الصلبة فكانت تؤدي بتكرار الحرث (ياحري) كما يستدل ايضا من نقوش واردة فوق محراث بمقبرة بالجيزة ترجمتها: «اضغط على المحراث لتفرز الجيوب في الارض» (دنكابيل ٢-٥١) . وفي عهد الأسرة الثامنة عشرة انتشرت هذه الطريقة بين القوم فكانوا يجررون حد المحراث على الزينة القائمة بين كل شقين فيشطرها السلاح شطرين يغطي كل منهما الجيوب في الشق المجاور . ووردت على الآثار رسوم تبين استخدام العبيد في جري المحارث لتقيام هذه العملية (ياحري)